أدب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة الإمام المحقق الشهير أقضى القضاة

أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي

رحمه الله تعالى

طبعة جديدة

منقحة

شرح وتعليق

محمد كريم راجح

دار إقرأ

الطبعة الرابعة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار اقرأ

بيروت - الرملة البيضاء - سنتر ملكارت التجاري - ص.ب: ١٣٥٨١٨ - هاتف: ٨٠٦٢٥٢

ترجمة مؤلف هذا الكتاب

هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي. ولد بالبصرة ونشأ بها ثم استوطن بغداد وفوض إليه القضاء في بلدان كثيرة. وكان جليل القدر متقدماً عند السلطان ديناً تقياً كثير المجاهدة لنفسه دائباً في مراقبتها. وهو من وجوه فقهاء الشافعية وكبارهم وكان حافظاً للمذهب وله فيه كتاب الحاوي الذي لم يطالعه أحد إلا شهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب. ومن مصنفاته كتاب أدب الدنيا والدين والأحكام السلطانية وقانون الوزارة وسياسة الملك. درس ببغداد والبصرة سنين كثيرة وانتفع الناس به وبمصنفاته في حياته وبعد مماته. وكانت وفاته يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول سنة ٤٥٠ هـ (٢٦ مايو سنة ١٠٥٨ م) وله من العمر ٨٦ سنة ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد رحمه الله تعالى ورضي عنه.

والماوردي نسبة إلى بيع الماورد هكذا قال السمعاني أهـ مقتطفاً من وفيات الأعيان وغيره مع التصرف في العبارة.

أحمد إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي رحمه الله تعالى:

الحمد لله ذي الطول[1] والآلاء[2] وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء وعلى آله وأصحابه الأتقياء (أما بعد) فإن شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره[3] بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء[4] ثمرته. وأعظم الأمور خطراً وقدراً وأعمها نفعاً ورفداً ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والأولى لأنه باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة× وقد توخيت[5] بهذا الكتاب الاشارة إلى آدابهما وتفصيل ما أجمل من أحوالهما على أعدل الأمرين من إيجاز وبسط أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الأدباء[6] فلا ينبو[7] عن

---

(١) الطول: بفتح الطاء وسكون الواو: القدرة، أو الغنى. أو الفضل والزيادة.

(٢) الآلاء: بالمد: الفم ـ مفرده أَلى بكسر الهمزة أو فتحها وسكون اللام. أو مفرده ألْو مثل ولو أو ألَىَ مثل رحىً.

(٣) خطره: الحظ بفتح الخاء الطاء الشرف والقدر.

(٤) اجتناء: اقتطاف.

(٥) توخيت: من توخّى رضاه بمعنى تحراه، أو من تأخى الشيء إذا تحرى ما هو اللائق.

(٦) وترقيق الأدباء: لأنهم يؤدون المعاني الحسان بأسلوب مناسب سهل، وألفاظ عِذاب لا غموض فيها ولا لبس.

(٧) لا ينبو: لا يبعد، يقال: نبا السيف إذا بعد عن مضربه.

فهم ولا يدق في وهم[1]. مستشهداً من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه[2] ثم متبعاً ذلك بأمثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء لأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[3] : إن القلوب تمل[4] كما تمل الأبدان فأهدوا إليها طرائف الحكمة[5] فكان هذا الأسلوب يحب التنقل في المطلوب من مكان إلى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيراً في داره من مكان إلى مكان وينشد قول أبي العتاهية رحمه الله:

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة[6] إلا التنقُّل من حالٍ إلى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب (الباب الأوّل) في فضل العقل وذم الهوى (الباب الثاني) في أدب العلم (الباب الثالث) في أدب الدين (الباب الرابع) في أدب الدنيا (الباب الخامس) في أدب النفس. وأنا أستمد من الله تعالى حسن معونته وأستودعه حفظ موهبته بحوله ومشيئته وهو حسبي من معين وحفيظ.

باب فضل العقل وذم الهوى

إعلم أن لكل فضيلة أُسّاً[7] ولكل أدب ينبوعاً[8]. وأُس الفضائل

(١) لا يدق في وهم: لا يخفها، والمراد أن كل مخاطب يفهمه.

(٢) يضاهيه: يشابهه في مدلوله.

(٣) علي بن أبي طالب: هو أمير المؤمنين، أبو الحسن، وكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا تراب. روي له عن رسول الله ٥٨٦ حديثاً. وولي الخلافة خمس سنين إلا شهراً قتل بالكوفة سنة أربعين عن ثلاث وستين سنة. وصفه ابن عباس: فقال: هو قمر باهر في ضوئه وبهائه وأسد خاور في شجاعته ومضائه، وفرات زاخر في جوده وسخائه، وربيع باكر في خصبه وحيائه، رضي الله عنه.

(٤) تمل: تسأم، وبابه علم.

(٥) طرائف الحكمة: نوادرها أو حسنها.

(٦) مدبرة: معرضة ركائبة.

(٧) أساً: بضم الهمزة: هو أصل كل شيء، كأصل البناء.

(٨) ينبوعاً: عيناً تتفجر الآداب منها، كما تتفجر المياه من الينبوع.

وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدّين أصلاً وللدنيا عماداً فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم[1] وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسمين: قسمًا وجب بالعقل فوكده الشرع وقسمًا جاز في العقل فأوجبه الشرع فكان العقل لهما عماداً. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: لكل شيء دعامة[2] ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير[3]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه. وقال الحسن البصري رحمه الله: ما استودع الله أحداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما. وقال بعض الحكماء: العقل أفضل مرجو والجهل أنكى[4] عدوّ وقال بعض الأدباء: صديق كل امرىء عقله وعدوه جهله. وقال بعض البلغاء: خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل. وقال بعض الشعراء وهو إبراهيم ابن حسان:

يزين الفتى في الناس صحة عقله ... وإن كان محظوراً[5] عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله[6] ... وإن كرمت[7] أعراقه[8] ومناسبه[9]
يعيش الفتى في الناس بالعقل إنه ... على العقل يجري علمه وتجاربه
وأفضل قسم[10] الله للمرء عقله ... فليس من الأشياء شيء يقاربه

(١) ومآربهم: جمع مأربة ـ بفتح الراء وضمها: الحاجة.
(٢) دعامة: بكسر الدال: عماد البيت.
(٣) الحديث: رواه في الأحياء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٤) أنكى عدو: أي لا يرحم أصلاً، بل يقتل من صادفه.
(٥) محظوراً: ممنوعاً.
(٦) قلة عقله: فساد رأيه.
(٧) كرمت: عزت وشرفت.
(٨) أعراقه: جمع عرق بكسر العين: أصل الشيء.
(٩) مناسبة: جمع نسب على غير قياس، وهو القرابة من الجانبين، أو من جانب الأب خاصة.
(١٠) قسم بفتح فسكون: مصدر قسم. وهو ما يقسمه الله بين الناس من الحظوظ والمواهب.

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كمُلت أخلاقه ومآربه[1]

وأعلم أنه بالعقل تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات. وقد ينقسم قسمين غريزي ومكتسب.

فالغريزي هو العقل الحقيقي وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه إلى زيادة ولا يقصر عنه إلى نقصان وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان فإذا تم في الانسان سمي عاقلاً وخرج به إلى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس:

إذا تم عقل المرء تمت أموره وتمت أمانيه[2] وتم بناؤه[3]

وروى الضحاك[4] في قوله تعالى: ﴿ لينذر من كان[5]حياً ﴾ أي من كان عاقلاً واختلف الناس فيه[6] وفي صفته على مذاهب شتى[7] فقال قوم هو جوهر[8] لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ومن قال بهذا القول اختلفوا في محله فقالت طائفة منهم: محله الدماغ لأن الدماغ محل الحس وقالت طائفة أخرى منهم: محله القلب لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول في العقل بأنه جوهر لطيف[9] فاسد من وجهين أحدهما أن الجواهر متماثلة

---

(١) مآربه: حاجاته.

(٢) أمانيه: جمع أمنية، بضم الهمزة وكسر النون وتشديد الياء، أي تحت مقاصده.

(٣) بناؤه: أي بناء جسمه، لأن فيه محل العقل.

(٤) الضحاك: هو ابن مزاحم الهلالي الخراساني، يروى عن أبي هريرة وابن عباس وابن عمر وأنس رضي الله عنهم، وروى عنه خلق، وثقه أحمد، وابن معين، وضعفه شعبة. أخرج له أصحاب السنن الأربع، ـ أي عدا النجاري ومسلم ـ وتوفي سنة ١٠٥ هـ.

(٥) من كان حياً: حي القلب.

(٦) فيه: أي في حقيقة العقل وما هية.

(٧) شتى: جمع شتيت: بمعنى المتفرق.

(٨) جوهر: الجوهر: هو القائم بذاته الذي يأخذ محلاً من الفراغ. ويقابله العرض، وهو ما لا يقوم بذاته، بل يحتاج في وجوده إلى محل يقوم به.

(٩) لطيف: روحاني لا يشاهد بالأبصار كالألوان المحتاجة في وجودها إلى أجسام تحل بها.

فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها[1] ولو أوجب سائرها ما يوجبه بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهر لجاز أن يكون عقل بغير عاقلٍ كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهراً. وقال آخرون: العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الإدراك من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متلذذاً أو آلماً أو مشتهياً. وقال آخرون من المتكلمين: العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الإجمال وتناوله من الاحتمال والحد إنما هو بيان المحدود بما ينفى عنه الإجمال والاحتمال. وقال آخرون وهو القول الصحيح: إن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان أحدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدأ في النفوس. فأما ما كان واقعاً عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والأصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والأجسام المدركة باللمس فإذا كان الانسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الأشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لأن خروجه في حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم لا يخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم. وأما ما كان مبتدأ في النفوس فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فإذا صار عالماً بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل. وسمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود[2] إذا نفرت ولذلك قال عامر بن عبد القيس: إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما

---

(١) سائرها: باقيها.

(٢) الشرود: على وزن عقود: الفرار.

روى النبي ﷺ أنه قال: «العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل» وكل من نفى أن يكون العقل جوهراً أثبت محله في القلب لأن القلب محل العلوم كلها. قال الله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ فدلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثاني أن محله القلب. وفي قوله تعالى: يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فهذه جملة القول في العقل الغريزي. وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكرة وليس لهذا حد لأنه ينمو إن استعمل وينقص إن أهمل ونماؤه يكون بأحد وجهين إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاد من شهوة كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحنكة[1] وصحة الروية[2] بكثرة التجارب وممارسة الأمور ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم: المشايخ أشجار الوقار[3] ومنابع الأخبار لا يطيش[4] لهم سهم ولا يسقط لهم وهم[5] إن رأوك في قبيح صدوك وإن أبصروك على جميل أمدوك. وقيل: عليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت[6] لأسماعهم آثار الغير[7]. وقيل في منثور الحكم: من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله. وقيل فيه: لا تدع الأيام جاهلاً إلا أدبته. وقال بعض الحكماء: كفى بالتجارب تأديباً وبتقلب الأيام عظة. وقال بعض البلغاء: التجربة مرآة العقل والغرة[8] ثمرة الجهل. وقال بعض الأدباء. كفى مخبراً

---

(١) الحنكة: بضم الحاء: استحكام العقل، ومتانة الفكر بالتجارب.

(٢) الروية: الفكرة، يقال: هو سديد الروية أي صائب الفكر.

(٣) الوقار: الرزانة والتمكين. ويقابله الخفة.

(٤) لا يطيش لهم سهم: هو كناية عن إصابة ظنونهم وفراستهم. وطاش السهم حاد عن الهدف فلم يصبه.

(٥) وهم: الوهم: ادراك المعنى الجزئي المتعلق بالمحسوس. أي لا يخطئون في الكليات ولا في الجزئيات.

(٦) تصدت: تعرضت.

(٧) آثار الغير: وهي حوادث الدهر. ومنه الدهر ذو غير أي ذو أحداث مغيرة.

(٨) الغرة: بكسر الغين وتشديد الراء: الغفلة، أي الانخداع بالأماني الباطلة.

عما بقى ما مضى وكفى عبراً لأولي الألباب ما جربوا. وقال بعض الشعراء:

ألم تـر أن العقـل زين لأهله وأن تمام العقل طـول التجارب

وقال آخر:

إذا طال عمر المرء في غير آفة[1] أفادت له الأيام في كرهـا عقلاً

وأما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس[2] في زمان غير مهمل[3] للحدس فإذا امتزج بالعقل الغريـزي صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذي يكون في الأحداث من وفور العقل وجودة الرأي حتى هرم بن قطبة[4] حين تنافـر إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة[5]: عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرماً أراد أن يرفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكرا قوله إذعانا للحق فصارا إلى أبي جهل لحداثة سنه وحدة ذهنه فأبى أن يحكم بينهما فرجعا إلى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد:

يـا هرم ابن الأكـرمين منصبـا إنـك قـد أوتيت حكـمًا معجبـا

وقد قالت العرب: عليكم بمشاورة الشباب فإنهم ينتجون رأيا لم ينله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة[6] الهرم. وقد قال الشاعر:

رأيت العقـل لم يكن انتهـابـا ولم يقسم عـلى عـدد السنينـا
ولـو أن السنـين تـقـاسمتـه حـوى الآبـاء أنصبـة البنينـا

---

(١) آفة: آفة العقل: اتباع الهوى والشهوات، وكثرة الهموم والمشاغل.

(٢) الحدس: هو الظن، والتخمين.

(٣) مهمل: هكذا. لا مهمل، كما وقع في أكثر النسخ. مُصَحَّفاً.

(٤) هرم بن قطبة: هو ابن سنان الفزاري، حكم من حكام العرب، يقضي بين السادات فيرضون بقضائه، ولا يرد قوله، أدرك الإسلام وله صحبة.

(٥) تنافر إليه: تحاكم إليه، والمنافرة: المحاكمة بين اثنين بحضور جمع ليقضي أحد العقلاء في أيهما أعز نفراً عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة: كل منهما سيد من سادات قومه، فارس شاعر.

(٦) رطوبة الهرم: ضعفه لتناقص الحرارة الغريزية.

وحكى الأصمعي[1] رحمه الله قال: قلت لغلام حدث[2] من أولاد العرب كان يحادثني فأمتعني[3] بفصاحة وملاحة: أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق قال لا والله قال: فقلت ولم قال: أخاف أن يجني على حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى على حمقي فانظر إلى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو أكبر منه سناً وأكثر تجربة. وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن قتيبة[4] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير[5] فهربوا منه إلا عبد الله فقال له عمر رضي الله عنه: ما لك لم لا تهرب مع أصحابك فقال يا أمير المؤمنين: لم أكن على ريبة فأخافك ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة[6] وحسن البديهة[7] كيف نفى عنه اللوم وأثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية. وحكي أن سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدق[8] بضرب أعناق

---

(١) الأصمعي: هو أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن علي بن أصمع كان حافظاً عالماً فطناً عارفاً بأشعار العرب وأخبارها كان يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة توفي في البصرة سنة ٢١٦ هـ وهو ابن ٩٤ سنة.

(٢) حدث: بفتحتين: الشاب، وجمعه أحداث.

(٣) فأمتعني: أفادني ونفعني.

(٤) ابن قتيبة: هو أبو محمد بن مسلم المروزي، صاحب كتاب العوارف وأدب الكاتب.

(٥) عبد الله بن الزبير بن العوام، هو أول من ولد في الاسلام للمهاجرين بالمدينة، ولدته أمه أسماء بنت الصديق بقباء، فأتت به النبي ﷺ فوضعه في حجره، فدعا بتمرة فمضغها، ثم تفل فيه وحنكه، فكان أول شيء دخل في جوفه ريقه ﷺ، ثم دعا له وكان صواماً، قواماً. بويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ما عدا الشام، وجدد عمارة الكعبة وجعل لها بابين، وحج بالناس ثماني حجج وبقي بالخلافة إلى أن حضره الحجاج بمكة سنة اثنين وسبعين، ولم يزل يحاصره إلى أن أصابته رمية حجر، فمات وصلب جسده، وحمل رأسه إلى خراسان.

(٦) المنة: بضم الميم: القوة.

(٧) البديهة: المفاجأة.

(٨) الفرزدق: همام بن غالب الشاعر المشهور صاحب جرير، لقب بالفرزدق لجهامة وجهه، وغلظه ـ الفرزدق: القطعة الضخمة من العجين ـ وكنية أبو فراس. كان كريم الآباء، شريف =

أسارى[1] من الروم[2] فاستعفاه[3] الفرزدق فلم يفعل وأعطاه سيفا لا يقطع شيئاً فقال الفرزدق؛ بل أضربهم بسيف أبي. رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبا[4] السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق:

أيعجب الناس أن أضحكت سيدهم ... خليفة الله يستسقى[5] به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش ... عن الأسير ولكن أخر القدر
ولن يقدم نفساً قبل ميتتها ... جمع اليدين ولا الصمصامة[6] الذكر[7]

ثم أغمد[8] سيفه وهو يقول:

ما إن يعاب سيد إذا صبا[9] ... ولا يعاب صارم[10] إذا نبا

* ولا يعاب شاعر إذا كبا[11] *

ثم جلس وهو يقول كأني بابن المراغة[12] قد هجاني[13] فقال:

= البيت، شيعياً مائلاً لبني هاشم، ونزع في آخر عمره عما كان عليه من الفسق والقذف، وراجع طريقة الدين، ومات بالبادية سنة ١١٠ هـ.

(١) أسارى: على وزن سكارى. جمع أسير.

(٢) الروم: ينتسبون إلى روم بن عيصوبه اسحق عليه السلام.

(٣) فاستعفاه: طلب عفوه عن القتل والضرب.

(٤) فنبا: كلَّ وارتدَّ، ولم يمض في عنق الرومي.

(٥) يستسقى به المطر: يطلب به الغيث.

(٦) الصمصامة: السيف الذي لا ينثني.

(٧) الذكر: نعت للسيف، وهو أجود الحديد والفولاذ.

(٨) غمد سيفه: جعله في الغمد.

(٩) صبا: مال إلى جهة الفتوة والصباوة.

(١٠) صارم: الصارم السيف القاطع.

(١١) كبا: زل لسانه، أو حصر ولم يتكلم.

(١٢) المراغة: لقب جرير، لقبه به الفرزدق أو الأخطل تحقيراً له، لأن المراغة معناها الأتان التي لا تمنع الفحولة بل تطلبها.

(١٣) هجاني: رماني بالجبن.

بسيف أبي[1] رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم[2]

ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فأنشأ يقول:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قال يا أمير المؤمنين كأني بابن القين[3] وقد أجابني فقال:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم[4]

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم أخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق:

كذلك سيوف الهند تنبو ظباتها[5] وتقطع أحياناً مناط التمائم[6]

ولن نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

وهل ضربة الرومي جاعلة لكم أباعن كليب[7] أو أخاً مثل دارم[8]

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكى أن المهدي أتى بأسرى من الروم فأمر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة[9] فقال له: إضرب عنق هذا

(١) أبي رغوان: كنية مجاشع جد الفرزدق.

(٢) سيف بن ظالم: هو سيف يزيد بن الملهب بن أبي صفرة.
وأبو صفرة: هو ظالم بن سراقة بن كندي. وكان المهلب وبنوه من أكبر القواد في الدولة الأموية وهو صاحب حروب الأزارقة، وولاه عبد الملك خراسان بعد الأزارقة سنة ٧٩ ومات سنة ٨٣.

(٣) ابن القين: هو الفرزدق. والقين الحداد، لقبه به جرير.

(٤) المغارم: جمع مغرم، وهو ما يلزم أداؤه كالدين.

(٥) ظباتها: جمع ظبة بالضم مثل ثبة، وهو حد السيف الذي يضرب به.

(٦) التمائم: جمع تميمة، وهي الخرزات التي تعلق على الصبي لدفع النظر، وإصابة العين، والمناط اسم مكان من ناط به إذا علق عليه. أي وتقطع أحياناً الأعناق مع أعالي الصدور.

(٧) كليب: أخو مهلهل الشاعر، وخال امرىء القيس، وكان أعز الناس في العرب، يضرب به المثل فيقال: أعز من كليب.

(٨) دارم: هو ابن مالك بن حنظلة التميمي، وهو ابو مجاشع، وبيته أكبر بيوت بني تميم.

(٩) شبيب بن شيبة: عده الجاحظ من الخطباء. ابتدأ بحلاوة ورشاقة، وسهولة وعذوبة، فلم =

العلج[1] فقال يا أمير المؤمنين قد علمت ما ابتلى به الفرزدق فعير به قومه إلى اليوم فقال: إنما أردت تشريفك وقد أعفيتك وكان أبو الهول الشاعر حاضراً فقال:

جزعت من الرومي وهو مقيد ... فكيف ولو لاقيته وهو مطلق
دعاك أمير المؤمنين لقتله ... فكاد شبيب عند ذلك يفرق[2]
فنح شبيباً عن قراع كتيبة[3] ... وأدن شبيباً من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء: آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وإن أعضل[4] كما قيل لعلي رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال: كما يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله بن عباس: أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد فقال: أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان وهذان الجوابان جوابا إسكات تضمنا دليلي إذعان وحجتي قهر. ومن غير هذا الفن وإن كان مسكتاً ما حكي عن إبليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال: ألست تقول إنه لن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك قال نعم قال: فارم نفسك من ذروة[5] هذا الجبل فإنه إن يقدر لك السلامة تسلم فقال له: يا ملعون إن لله أن يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من أنبياء الله تعالى الذين أمدهم بوحيه وأيدهم بنصره وإنما يستغرب ممن يلجأ إلى خاطره ويعول[6] على بديهته. وروى

= يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره.

(١) العلج: بكسر فسكون.
(٢) يفرق: يفزع ويضطرب.
(٣) الكتيبة: العسكر من المائة إلى الألف.
(٤) أعضل اشتد وأشكل.
(٥) ذروة الجبل: أعلاه: بضم الذال وكسرها.
(٦) يعوّل: يعتمد.

قثم[1] بن العباس رضي الله عنهما قال: قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كم بين السماء والأرض قال: دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال: مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله إما اختباراً وإما استبصاراً فصدر عنه من الجواب ما أسكت. فأما إذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الإستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق في الرجل الفاضل بالاستحقاق. روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ بخير فقال: كيف عقله قالوا يا رسول الله: إن من عبادته إن من خلقه إن من فضله إن من أدبه فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله: نثني عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال رسول الله ﷺ: إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلف[2] على قدر عقولهم. واختلف الناس في العقل المكتسب إذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة أم لا فقال قوم: لا يكون فضيلة لأن الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما أن الخير متوسط بين زذيلتين[3] فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر: أيها الملك عليك بالاعتدال في كل الأمور فإن الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: خير الأمور أوساطها[4]. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خير الأمور النمط[5] الأوسط إليه يرجع العالي وبه يلحق التالي. وقال الشاعر:

---

(١) قثم: على وزن زُفَر: وأصله كثير العطاء.

(٢) بالزلف: جمع زلفة بضم الزاي، وهي الدرجة الرفيعة والقربة.

(٣) بين رذيلتين: هما الإفراط والتفريط.

(٤) أوساطها: جمع وسط بفتح السين.

(٥) النمط: بفتحتين: الاسلوب والطريقة.

لا تـذهبن في الأمـور فـرطـا[1] لا تسـألن إن سألت شـططا[2]

وكن من الناس جميعاً وسطا

قالوا: لأن زيادة العقل تفضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى[3] الأشعري أن يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد: يا أمير المؤمنين أعن موجدة[4] أو خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولكن خفت أن أحمل على الناس فضل عقلك. ولأجل هذا المحكي عن عمر ما قيل قديماً إفراط العقل مضر بالجسد وقال بعض الحكماء: كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك. وقال بعض البلغاء: قليل يكفي خير من كثير يطغى[5]. وقال آخرون وهو أصح القولين: زيادة العقل فضيلة لأن المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصاً مذموماً لأن ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حدّ الشجاعة[6] نسب إلى التهوّر[7] والسخيّ إذا زاد على حدّ السخاء[8] نسب إلى التبذير[9] ولبس كذلك حال العقل المكتسب لأن

---

(١) فرطا: بفتحتين يستوي فيه المفرد والجمع، المتقدم السابعة وبضمتين الأمر المجاوز فيه حده، ومنه قوله تعالى «وكان أمره فرطاً».

(٢) شططاً: الشطط: مجاوزة الحد، والتباعد عن الحق، كمن يسأل للإعنات والتبكيت.

(٣) أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس الأشعري الصحابي الكبير، استعمله رسول الله على زبيد، واستعمله عمر على الكوفة والبصرة. له ثلاثمائة وستون حديثاً. روى عنه أنس ابن مالك، وخلق من التابعين. مات بمكة أو بالكوفة سنة (٤٥) عن ٦٣ سنة. رضي الله عنه.

(٤) موجدة: بفتح الميم وكسر الجيم: غضب.

(٥) يطغى: الطغيان مجاوزة الحد.

(٦) الشجاعة: هيئة حاصلة للقوة الغضبية بين التهور والجبن، بها يقدم على أمور ينبغي أن يقدم عليها كالقتال مع الكفار، ما لم يزيدوا على ضعف المسلمين.

(٧) التهور: هيئة حاصلة للقوة الغضبية بها يقدم على أمور، لا ينبغي أن يقدم عليها كالقتال مع الكفار إذا كانوا زائدين على ضعف المسلمين.

(٨) السخاء: بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة، وأن يوصل إلى مستحقه بقدر الطاقة.

(٩) التبذير: هو الجهل بمواقع الحقوق.

الزيادة فيه زيادة علم بالأمور وحسن إصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن إلى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أفضل الناس أعقل الناس. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: العقل حيث كان ألوف مألوف وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته[1] ﴾ أي بحسب عقله. وقال القاسم بن محمد[2]: كانت العرب تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه. وقيل في منثور الحكم: كل شيء اذا كثر رخص إلا العقل فإنه اذا كثر غلا. وقال بعض البلغاء: ان العاقل من عقله في إرشاد ومن رأيه في إمداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في إغواء ومن هواه في إغراء فقوله سقيم وفعله ذميم. وأنشدني ابن كنلك[3] لابيه:

من لم يكن أكثره[4] عقله أهلكه أكثر ما فيه

أما الدهاء والمكر فهو مذموم لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر ولو صرفه إلى الخير لكان محمودا. وقد ذكر المغيرة بن شعبة[5] عمر بن الخطاب فقال: كان والله أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يخدع وقال عمر: لست بالخب[6] ولا يخدعني الخب. واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله

---

(١) على شاكلته: على مذهبه وطريقته التي تشاكل حالته في الهوى والضلالة.

(٢) القاسم بن محمد: بن أبي بكر الصديق، المدني، أفضل أهل زمانه كان ثقة عالماً: فقيهاً من الفقهاء السبعة بالمدينة اماماً ورعاً من خيار التابعين. مات سنة بضع ومائه.

(٣) ابن كنلك: أبو الحسين البصري، كان رفيع القدر في الأشعار والعربية والأدب. كان من الشعراء العباسيين.

(٤) أكثره: أي أكثر خصاله.

(٥) المغيرة بن شعبة: أبو عبد الله بن عامر الثقفي، وهو من دهاة العرب وقد أحصن في الاسلام ألف امرأة، وقد أصيب بعينه في اليرموك، وحضر في اليمامة، وفتوح الشام، ونهاوند وهمذان، واستعمله عمر على البصرة، ثم على الكوفة، ثم استعمله معاوية على الكوفة إلى أن توفي فيها سنة ٥٠ هـ.

(٦) الخب: بالفتح والكسر الرجل الخداع. نقول منه: خببتَ يا رجل بالكسر خِباً بالكسر أيضاً. هـ مختار.

إلى الشر كزياد[1] وأشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلاً أم لا فقال بعضهم: أسميه عاقلاً لوجود العقل فيه وقال آخرون: لا أسميه عاقلاً حتى يكون خيرا دينا لأن الخير والدين من موجبات العقل فأما الشرير فلا أسميه عاقلاً وانما أسميه صاحب روية وفكر وقد قيل: العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعي[2] رضي الله عنه فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل الناس: انه يكون مصروفاً في الزهاد لأنهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالأمل. وروى لقمان بن أبي عامر عن أبي الدرداء[3] أن رسول الله

---

(١) كزياد: ابن أبيه. أمير، من الدهاة القادة الفاتحين الولاة من أهل الطائف. اختلفوا في اسم أبيه، فقيل: عبيد الله الثقفي، وقيل: أبو سفيان. ولدته أمه سمية في الطائف، وتبناه عبيد الثقفي (مولى الحارث بن كلدة) وأدرك النبي ﷺ ولم يره، وأسلم في عهد أبي بكر، وكان كاتباً للمغيرة بن شعبة، ثم لأبي موسى الأشعري أيام امرته على البصرة، ثم ولاه علي ابن أبي طالب إمرة فارس، ولما توفي علي امتنع زياد على معاوية، وتحصن في قلاع فارس، وتبين لمعاوية أنه أخوه من أبيه (أبي سفيان) فكتب إليه بذلك، فقدم زياد عليه، وألحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤ فكان عضده الأقوى، وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق، فلم يزل في ولايته إلى أن توفي سنة ٥٣ ولم يخلف غير ألف دينار. قال الشعبي: ما رأيت أحداً أخطب من زياد.

عمر بن العاص: بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم، وأولى الرأي والحزم والمكيدة فيهم. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في هدنة الحديبية، وولاه النبي ﷺ إمرة جيش (ذات السلاسل) وأمده بأبي بكر وعمر، ثم استعمله على عمان، ثم كان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام في زمن عمر، وهو الذي افتتح قنسرين، وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية، وولاه عمر فلسطين، ثم مصر فافتتحها، وعزله عثمان. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية كان مع معاوية، فولاه معاوية على مصر سنة ٣٨ هـ توفي بالقاهرة ٤٣ هـ.

(٢) الشافعي: محمد بن ادريس. أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة (بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفي بها، وقبره بمعروف في القاهرة.

قال المبرد: «كان الشافعي أشعر الناس وأدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات» كان ذكياً مفرطاً، له تصانيف كثيرة، أشهرها كتاب «الأم». توفي سنة ٢٠٤ هـ.

(٣) أبو الدرداء: اسمه عويمر بن زيد الانصاري، من أفاضل الصحابة، وفرض له عمر رزقاً لجلالته، وولى قضاء دمشق في خلافة عثمان، ومات بها.

صلى الله عليه وسلم قال: ياعويمر ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً قلت بأبي أنت وأمي ومن[1] لي بالعقل قال: اجتنب محارم الله وادّ فرائض الله تكن عاقلاً ثم تنفل[2] بصالحات الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً وتزدد من ربك قرباً وبه عزاً. وأنشدني بعض أهل الأدب هذه الأبيات وذكر أنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إن المكارم أخلاق مطهرة ... فالعقل أوّلها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم اني لا أصدّقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها
والعين تعلم من عيني محدّثها ... إن كان من حزبها[3] أو من أعاديها
عيناك قد دلتا عيني منك على ... أشياء لولاهما ما كنت تبديها

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لأنه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزيّ عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالأنوك[4] الذي لا تجد له فضيلة والأحمق الذي قلما يخلو من رذيلة: وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: الأحمق كالفخار[5] لا يرقع ولا يشعب[6] وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الأحمق أبغض خلق الله إليه إذ حرمه أعز الأشياء[7] عليه. وقال بعض الحكماء: الحاجة إلى العقل أقبح من الحاجة إلى المال. وقال بعض البلغاء:

---

(١) ومن لي: الاستفهام للاستبعاد، أي من يتكفل ويضمن لي؟
(٢) النفل: الزيادة مطلقاً في أي شيء. وفي الشرع: اسم لما شرع زيادة على الفرائض والواجبات. وقد يسمى المندوب والمستحب والتطوع.
(٣) الحزب: بكسر فسكون: الأصحاب المعينة، والجند المخصوص.
(٤) الأنوك: مثل الأحمق لفظاً ومعنى.
(٥) الفخار: الخزف.
(٦) لا يُشعَب: لا يصلح.
(٧) حرمه أعز الأشياء عليه: أي حرمه العقل.

دولة الجاهل عبرة العاقل[1] وقال أنو شروان[2] لبزرجمهر[3]: أي الأشياء خير للمرء قال: عقل يعيش به قال: فإن لم يكن قال: فاخوان يسترون عيبه قال: فإن لم يكن قال: فمال يتحبب به الى الناس قال: فإن لم يكن قال: فعيّ[4] صامت قال: فإن لم يكن قال: فموت جارف. وقال سابور بن[5] أردشير: العقل نوعان: احدهما مطبوع والآخر مسموع ولا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال:

رأيت العقل نوعين ... فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع ... اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل والأحمق بما فيه من الرذائل فقال العاقل: اذا والى بذل في المودّة نصره وإذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر وإن أساء إليه مسيء سبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو والأحمق ضالّ مضل إن أونس تكبّر وإن أوحش تكدر وإن استنطق تخلف[6] وان ترك تكلف مجالسته مهنه[7] ومعاتبته محنه ومحاورته تعرّ[8]

---

(١) يعتبر بها: أي ليعلم أن الحظوظ ليست بالكسب والاستحقاق بل بمحض خلق الله وإحسانه، غير أنه لا بد من الجد والسعي.

(٢) أنو شروان: الملك، العادل ملك العرب والعجم، وكان موصوفاً بالعدل، معروفاً بحسن الدعابة والفضل. ملك ٤٩ سنة.

(٣) بزر جمهر: كان وزير أنو شروان، وأكثر الفرس حكمًا ومواعظ.

(٤) فعيّ: عدم الاهتداء إلى التكلم.

(٥) سابور: اسم ملك من ملوك الفرس، معرب شابور، مخفف عن شاه بور، وهو سابور بن أردشير بن بابل.

(٦) تخلف: نطق بالخلاف.

(٧) مَهْنة: نوع من الحقارة للجليس.

(٨) تعر: والعُر بالضم: الحرب، والمراد لازمه أي توجب الفم وضيق الصدر وانكسار القلب. وهو هكذا في منهاج اليقين. خلاف ما في طبعة الحلبي «تفر».